القرآن الكريم، وأثره في النزعة العقلية في الإسلام .

الدكتور
عرفان عبدالحميد
الاستاذ المساعد بقسم الفلسفة

ان القرآن الكريم الذى زعم فيه غلاة المستشرقين « بأنه كتاب يعيق الفكر والنظر ، وأن فيه تناقضا وتدابرا ، وانه بطبيعته سجن لحرية العقل وعقبة فى سبيل نهوض الفلسفة »[1] ، يعكس فى حقيقته صورا حيّة من الاهتمام الشديد بالعقل والفكر عند الانسان ، تلك الصور التى فى مجموعها تشكل حكما ، يقرب من البديهية العقلية التى تبرر قول من يقرر : انه كتاب يجعل التأمل والنظر ، والاستدلال والنقد ، والتمحيص والتقصي والاستبصار ، قواعد منهجية مقررة معروفة .

والحق فان القرآن الكريم لعب دورا أساسيا وجوهريا فى اثارة النزعة

---

(١) فرية التناقض هذه أثارها أسلاف المستشرقين ، يهود المدينة ومشركوا قريش والزنادقة الملاحدة فى العصر العباسي ، فما هى بالجديدة فى مادتها ، وان بدت كذلك فى صورتها ، قال المفسرون فى سبب نزول قوله تعالى « ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها » ، ان المشركين واليهود قالوا : أترون الى محمد يأمر أصحابه بأمر ثم ينهاهم عنه ويأمرهم بخلافه ، ويقول اليوم قولا ويرجع عنه غدا ، ما هذا الا كلام محمد يقوله من تلقاء نفسه ، وهو كلام يناقض بعضه بعضا ، فأنزل الله تعالى : « واذا بدّلنا آية مكان آية » ، وأنزل أيضا « ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها » : انظر : الواحدي : أسباب النزول ، ص ١٦١ ، طبعة الحلبي ، ١٩٥٩ ، كذلك : القاضي عبدالجبار المعتزلي : شرح الاصول الخمسة ، فصل : شبه الملحدة فى القرآن ، ص/٥٩٨ ؛ ومنها ادعاؤهم ان القرآن يناقض بعضه بعضا ويدافعه ، انظر أيضا ؛ الفخر الرازي : التفسير : ٣/٢٢٦ .

العقلية فى الاسلام ، وبيان دوره وأثره يعنى استعراض جملة العلوم العقلية التى استحدثت وتطورت فى الاسلام ، وانما قصدنا فى هذا المقال ، بيان صور وأنماط ، لنوعية المسائل التى أثارها القرآن الكريم وأبان عنها ، مما دعا المتكلمين والفلاسفة أن يصوغوا نظريات وآراء معينة عنها ، صارت تشكل بنيان الفكر الكلامي والفلسفي فى الاسلام .

أولا : المنهج الذى يقرره الكتاب العزيز :ـ

ينهج القرآن الكريم بالانسان طريقة أساسها التدبّر والتبصّر ، وقوامها إعمال الفكر والنظر ، ومن مستلزماتها ترك الجمود والتقليد والتزمّت الذي لا برهان يدعمه ؛ وهكذا فان فى القرآن الكريم آيات عديدة تدعو جميعا الى تحكيم العقل ، وتزدري ازدراء شديدا بالذين لا يحكّمون عقولهم فى الامور والاشياء ، من ذلك قوله تعالى « قل هذه سبيلي أدعو على بصيرة أنا ومن اتبعني »[٢] وقوله « وما يعقلها الا العالمون »[٣] وقوله « إنما يخشى الله من عباده العلماء »[٤] وقوله « قل هل يستوي الاعمى والبصير ، أم هل تستوي الظلمات والنور » .[٥]

والذين يجحدون نعمة العقل ولا يستعملونه فيما خلق له ومن أجله ، ويغفلون عن آيات الله ، هم موضع التحقير والازدراء ، والله تعالى يعتب عليهم فيقول « وكم من آية فى السموات والارض يمرّون عليها وهم عنها معرضون »[٦] .

وتعطيل العقل عن وظيفته يهبط بالانسان الى مستوى أقل من مستوى

---

(٢) يوسف/١٨٠ .
(٣) العنكبوت/ .
(٤) فاطر/٢٨ .
(٥) الرعد/١٨ .
(٦) يوسف/١٠٥ .

الحيوان الاعجم ، ولعل أبلغ الآيات دلالة فى هذا الخصوص ، قوله تعالى : « ان شرّ الدواب عند الله الصمّ البكم الذين لا يعقلون »[٧] فهذه الآية تجعل من لا يعقل ما حوله ، ولا يفكر فيما هو فيه من حال ،ومن هو صمّ لا يسمع الى ما يجري ، وبكم لا ينطق بحكم ولا يدلي برأي فيما يشاهد من وقائع وأحداث وقضايا ، أشبه بالدواب التى لا تعي ولا تفقه من أمرها شيئاً ، بل هو أخسّ أنواع الدواب وأقلها شأناً ، اذ المعروف ان من الدواب أنواعا تتكيف حسب قدراتها لمحيطها وتأبى الخضوع السلبي والانقياد الاعمى لظروف البيئة الطبيعية ، فتبصر منافعها ومضارها فتلزم بعض ما تبصره .

والقرآن بعد ذلك كله يكره الجمود على تقاليد الآباء والاجداد ، اذا كانت هذه التقاليد تناهض أحكام العقل القاطعة ، ويهزأ بهؤلاء الجامدين ، ويسخر من الخرافات والاساطير ، ويندد بالمقلدين الذين لا يفكرون الا بعقول غيرهم ويجمدون على القديم المألوف . ثم هو بعد ذلك كله يتخذ من الجدل العقلي الصارم طريقا للوصول الى الحقيقة ، هذه حقيقة مقررة ، تكاد تكون معلومة من الدين بالضرورة ، ومن جهلها أو أنكرها فهو جاهل لحقيقة القرآن الكريم ، وان شئت فاتلو قوله تعالى « واذا قيل لهم تعالوا الى ما أنزل الله والى الرسول قالوا : حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا ، أولو كان آباؤهم لا يعلمون شيئا ولا يهتدون »[٨] . « واذا قيل لهم اتّبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما الفينا عليه آباءنا أولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون »[٩] . « أفمن يمشي مكبّاً على على وجهه أهدى ، أم من يمشي سوياً على صراط مستقيم »[١٠] وهذا اللوم الشديد على التقليد والجمود

---

(٧) الانفال/٢٢ .
(٨) المائدة/١٠٤ .
(٩) البقرة/١٧٠ .
(١٠) ٠٠٠٠٠٠

على ما كان عليه الاسلاف ، كما يقول الدكتور محمد يوسف موسى ، له قيمته الكبيرة فيما يتصل بالمعرفة الحقة القائمة على أساس صحيح » .(١١)

---

(١١) الدكتور محمد يوسف موسى : القرآن والفلسفة ، ص/٥٦ [انطلاقا من قاعدة : ان العقل أساس الدين ، فقد بحث المتكلمون فى أول واجب على المكلف ، واختلفوا فى تحديده ؛ فالاكثرون ، ومنهم أبو الحسن الاشعري ، قالوا : انه معرفة الواجبات الشرعية ، وقيل : هو النظر فيها ، أي فى معرفة الله سبحانه لانه [أي النظر] واجب اتفاقا ، كما مرّ وهو قبلها ، وهذا مذهب جمهور المعتزلة ، والاستاذ أبي اسحق الاسفراييني ، من الاشاعرة . وقيل ، هو أول جزء من النظر ، لان وجوب الكل يستلزم وجوب أجزائه ، فأول جزء من النظر واجب ، وهو متقدم على النظر المتقدم على المعرفة ، وقال القاضى الباقلاني ، واختاره ابن فورك وإمام الحرمين الجويني ، انه القصد من النظر ، لان النظر فعل اختياري مسبوق بالقصد المتقدم على أجزائه . وقال أبو هاشم الجبائي المعتزلي : أول الواجبات الشك [انظر : شرح المواقف ، ص : ٦٣] وهذا الذى ذهب اليه الجبائي ، أول مبشر لفلسفة الشك من أجل اليقين ، اختاره من بعد الامام الغزالي ، يقول الامام « من لم يشك لم ينظر ، ومن لم ينظر لم يبصر ، ومن لم يبصر ففي العمى والضلالة » . [انظر كتابه : ميزان العمل ، ص] . هذا فى أصول الدين ، أو العقيدة ، أما فى الفروع فقد اختلف العلماء فى جواز التقليد فى الاحكام الشرعية العملية ، فذهب جمع الى عدم الجوازمطلقا وأوجبوا على المكلف الاجتهاد وتعلم وسائله وأدواته ، ومن هؤلاء الشاطبي ، وابن قيم الجوزية . يقول ابن القيم : « لا خلاف بين الناس فى أن التقليد ليس بعلم ، وان المقلد لا يطلق عليه اسم عالم » ، انظر كتابه : أعلام الموقعين : ١/٤٥ ، ويقول فى موضع آخر: « قال أهل العلم والنظر ، حدّ العلم التبين وادراك المعلوم على ما هو به ، فمن بان له الشيء فقد علمه ، قالوا : والمقلد لا علم له ، ... قال الشافعي – رض – « مثل الذى يطلب العلم بلا حجّة ، كمثل حاطب ليل يحمل حزمة وفيه أفعى تلدغه ، وهو لا يدري » المصدر نفسه ، ١٧٩/ – ١٨١ . انظر أيضا : الشاطبي الاعتصام : ٢/٣٤٧ .

ويقول الشيخ محمد عبده ، فى تفسير قوله تعالى « ومثل الذين كفروا ، كمثل الذى ينعق بما لا يسمع الا دعاء ونداء ، صمّ" بكم" عمي ، فهم

ثانياً :

أثار القرآن الكريم أمام العقل الانساني مسائل فلسفية وعلمية وأخلاقية كثيرة ومتنوعة ، ودفع العقل المسلم الى أن يتخذ ازاءها مواقف معينة تنطلق وتنسجم مع نظرته الكلية العامة الشاملة للوجود ، من ذلك الاشارة الى أصل الحياة والوجود ، والنشأتين الاولى والآخرة ، واتخاذ النشأة الاولى ـ أي اختراع الحياة وابداعها فى المادة الجامدة[١٢] ـ دليلا

لا يعقلون ، البقرة : ١٧١ » ، « الآية صريحة فى أن التقليد بغير عقل وهداية هو شأن الكافرين ، وان المرء لا يكون مؤمنا الا اذا عقل دينه وعرفه بنفسه حتى اقتنع به ، فمن ربي على التسليم بغير عقل ، والعمل ولو صالحا بغيرفقه ، فهو غيرمؤمن ، لانه ليس القصد من الايمان ان يذلّل الانسان للخير كما يذلل الحيوان ، بل القصد منه ، أن يرتقى عقله وتتزكى نفسه بالعلم بالله والعرفان فى دينه ، فيعمل الخير لانه يفقه انه الخير النافع المرضي لله ، ويترك الشر لانه يفهم سوء عاقبته ودرجة مضرته فى دينه ودنياه ، ويكون فوق هذا على بصيرة وعقل فى اعتقاده فلا يأخذه بالتسليم » ، انظر تفسير المنار ٢/٩٤ ، ويقول سيد قطب ، وهو بصدد تفسير هذه الآية ، «الاسلام رسلة التحرر الفكرى والانطلاق الشعوري ، لا تقر هذا التقليد المزري، ولا تقر محاكاة الآباء والاجداد ، افتراءاً بالاثم والهوى ، فلابد من سند ، ولابد من حجة ، ولابد من تدبر وتفكير ، ثم اختيار مبني على الادراك واليقين ، انظر : فى ضلال القرآن ، ١٧/٢٥ .

(١٢) صاغ الفلاسفة والمتكلمون هذا الدليل القرآني فى صورة برهان عقلي أسموه **بدليل الاختراع** ، وفى ذلك يقول ابن رشد « الطريق التى نبّه الكتاب العزيز عليها ، ودعا الكل من بابها [الى الاقرار بوجود الله] اذا استقرىء الكتاب العزيز وجدت تنحصر من جنسين ، أحدهما : طريق الوقوف على العناية بالانسان وخلق جميع الموجودات من أجله ولنسمّ هذه دليل العناية ، والطريقة الثانية : ما يظهر من اختراع جواهر الاشياء والموجودات ؛ مثل اختراع الحياة فى الجماد والادراكات الحسية والعقل ، ولنسم هذه دليل الاختراع .... وهذه الطريقة تنبني على أصلين موجودين بالقوة فى جميع فطر الناس ،

لاثبات النشأة الآخرة أو المعاد • والملاحظ على جملة الآيات التى تتضمن الاشارة الى الخلق الاول انها تلتزم طريقة التقرير البديهي التى لا يرى العقل بدّاً من التسليم بصحتها وصدقها ، من ذلك قوله تعالى : « ومن آياته ان خلقكم من تراب ثم اذا أنتم بشر تنتشرون »(١٣) وقوله « وهو الذى خلق من الماء بشراً فجعله نسباً وصهراً(١٤) وقوله « والله خلق كل دابة من ماء »(١٥) وقوله « هو الذي خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم يخرجكم طفلا »(١٦) • ثم يسوق القرآن الكريم هذه القدرة الخالقة المبدعة المخترعة لسر الوجود والحياة دليلا على صدق النشأة الآخرة ، فيقول تعالى « وضرب لنا مثلا ونسي خلقه ، قال : من يحيي العظام وهي رميم ! قل يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم »(١٧) ويقول تعالى « وقالوا : أإذا كنا عظاماً ورفاتاً أإنا لمبعوثون خلقاً جديداً ، أولم يروا ان الله الذى خلق السموات والارض قادر على أن يخلق مثلهم ، وجعل لهم أجلاً لا ريب فيه ، فأبى الظالمون الا كفورا »(١٨) • وقوله « أولم يروا

أحدهما ، ان هذه الموجودات مخترعة ، وهذا معوف بنفسه فى الحيوان والنبات • كما قال تعالى : « ان الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له » فانا نرى أجساما جمادية ثم تحدث فيها الحياة فنعلم قطعاً ان ههنا موجدا للحياة ومنعما بها وهو الله تبارك وتعالى • وأما السموات فنعلم من قبل حركتها التى لا تفتر انها مأمورة بالعناية بما ههنا ومسخرة لنا ، والمسخّر المأمور مخترع من قبل غيره ضرورة • وأما الاصل الثاني : فهو ان كل مخترَع فله مخترِع ، فيصبح من هذين الاصلين : ان للموجود فاعلا مخترعا له • انظر : ابن رشد : مناهج الادلة فى عقائد الملّة ص ١٤٠ وما بعدها •

(١٣) الروم/٢٠ •
(١٤) الفرقان/٥٤ •
(١٥) النور/٤٥ •
(١٦) غافر/٦٧ •
(١٧) يس/٧٩ •
(١٨) الاسراء/٩٨ ـ ٩٩ •

ان الله الذى خلق السموات والارض ولم يعي بخلقهن بقادر على أن يحيي الموتى ، بلى انه على كل شيء قدير »(١٩) .

---

(١٩) الاحقاف/٣٣ . [الظاهر من القرآن الكريم ان المنكرين للبعث والمعاد الجسماني ، لم يكونوا شرذمة قليلة من العرب ، بل كانوا يشكلون جماعات واسعة من الناس ، بدليل تأكيد القرآن المستمر على قدرة الله على الاعادة والخلق الثانى ، حتى صار ـ كما يقول الفخر الرازي : من المتعذر الجمع بين ان القرآن من عند الله وانكار المعاد الجسماني [انظر كتابه : الاربعين فى اصول الدين ، ص ٢٨٨] ، ولذلك أيضا فقد تصدى الغزالي للفلاسفة المنكرين للبعث الجسمانى فى كتابه المشهور « تهافت الفلاسفة » بالتشهير والتفكير ، فهذه احدى المسائل الثلاث التى أكفر الغزالي الفلاسفة فيها ، [انظر التهافت ، المسألة العشرون] . والظاهر من القرآن الكريم أيضا أن صنفين من العرب انكروا البعث ، صنف الدهرية : الذين أنكروا الخالق والبعث والاعادة ، وقالوا بالطبع المحيي والدهر المفني ، وهم الذين أخبر عنهم القرآن المجيد « وقالوا : ما هي الا حياتنا الدنيا نموت ونحيا ، وما يهلكنا الا الدهر ، وما لهم بذلك من علم ، إنْ هم الاّ يظنون ـ الجاثية/٢٤ » . وصنف آخر ، أقرّوا بالخلق وابتداء الخلق والابداع وانكروا البعث والاعادة ، وهم الذين أخبر عنهم القرآن : وضرب لنا مثلا...الآية . وأبرز من يتمثل فيه هذا المذهب رهط من العرب كان منهم : ابيّ بن خلف ، عدي بن أبى ربيعة . كان أبيّ بن خلف يأتى النبي ـ ص ـ بعظم حائل ، ويقول : يا محمد أترى ان الله يحيي هذا بعد ما قد رمّ ، فقال له النبي ـ ص ـ نعم ويبعثك ويدخلك النار . وجاء مرة عمر بن ربيعة النبي ـ ص ـ وقال له : حدثني عن يوم القيامة متى يكون ، وكيف أمرها وحالها ، فأخبره النبي ـ ص ـ بذلك ، فقال له ربيعة : لو عاينت ذلك اليوم لم أصدقه يا محمد ولم اؤمن بك ، أوَ يجمع الله هذه العظام ، فأنزل تعالى « أيحسب الانسان ألّن نجمع عظامه ، بلى قادرين على أن نسوي بنانه » [انظر : الواحدي : أسباب النزول، الصفحات : ١٧٣ ، ٢٠٩ ، ٢٥١ ، أيضا : الشهرستاني : الملل والنحل ، ٣/٢٦٠ ، تحقيق الشيخ أحمد فهمي محمد ، ١٩٤٩] .

ثالثاً :

ويثير القرآن الكريم مسألة فلسفية بحثها الحكماء قديماً وحاضراً ، واتخذوا منها طريقاً سلكوه للبرهنة على وجود الله ، أعني ما يشاهد فى الطبيعة من النظام والقصد والغاية والانسجام والتدبير ، رغم الاختلاف والتنوع والتنافر الظاهر فى جزئياتها ، طريقاً لاثبات وجود الله ، واصطلحوا على تسميته بالدليل الغائي[٢٠] Teleological Proof ، فالمتدبر الناظر فى أحوال هذا العالم الطبيعي يرى انه ركب على نحو معين ويسير وفق قانون مطرد لا يضطرب ولا ينخرم ، ينمّ عن هدف وحكمة ، ويستهدف غاية معينة مقصودة بذاتها ، ولما كانت الغائية لا تدرك الا على انها فكرة تستلزم عقلا ، فللطبيعة علة ، هو الله تعالى • وان شئت فاقرأ قوله تعالى « ألم نجعل الارض مهاداً ، والجبال أوتاداً وخلقناكم أزواجاً »[٢١] وقوله « تبارك الذى جعل فى السماء بروجاً وجعل فيها سراجاً وقمراً منيراً »[٢٢] وقوله « ان الله يمسك السموات والارض أن تزولا ولئن زالتا إن امسكهما من أحد من بعده ، انه كان حليماً غفوراً »[٢٣] وقوله « وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهر مبصرة لتبتغوا فضلا من ربكم ولتعلموا عدد السنين والحساب وكل شيء فصّلناه تفصيلا »[٢٤] وقوله

---

(٢٠) صاغ الفلاسفة والمتكلمون ـ فيما بعد ـ هذا الدليل القرآن فى صورة برهان فلسفي أسموه بـ « **دليل العناية** » وأقاموه على أصلين : **أحدهما :** ان جميع المخلوقات التى ههنا موافقة لوجود الانسان ، **والاصل الثاني :** ان هذه الموافقة هى ضرورة من قبل فاعل قاصد لذلك مريد ، اذ لا يمكن ان تكون هذه الموافقة بالاتفاق • انظر : ابن رشد : مناهج الادلة ، ص ١٤٠ •

(٢١) النبأ/٨ •

(٢٢) الفرقان/٦٤ •

(٢٣) فاطر/٤١ •

(٢٤) الاسراء/١٢ •

« ألم تر ان الله أنزل من السماء ماءً فأخرجنا به ثمرات مختلفاً الوانها ، ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانه وغرابيب سود ، ومن الناس والدواب والانعام مختلف ألوانه ، كذلك : انما يخشى الله من عباده العلماء »[٢٥] .

وفى القرآن الكريم اشارات صريحة وواضحة الى الدليل الكونى Cosmological Proof الذى سلكه الحكماء طريقا للبرهنة على وجود الله تعالى ، وهو الدليل الذى ينبني على التغير والتطور والحدوث الحاصل فى هذا العالم المادي ، من ذلك قوله تعالى « هل أتى على الانسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً »[٢٦] وقوله « ألم نخلقكم من ماء مهين فجعلناه فى قرار مكين الى قدر معلوم ، فقدرنا فنعم القادرون »[٢٧] . كذلك فان فى القرآن اشارات واضحة الى بنيان الدليل الذى أسماه المتكلمون بـ « دليل الجواز » وهو الذى ينبني على أصلين أحدهما[٢٨] : ان العالم يجمع

---

(٢٥) فاطر/٢٦ .

(٢٦) الدهر/٣٨ .

(٢٧) بنى المتكلمون من هذا الاعجاز القرآني دليلهم المشهور ب « **دليل الحدوث** » ، وهو ينبني عندهم على ثلاث مقدمات كبرى ، هي بمنزلة الاصول للدليل . **أحدها** : ان الجواهر لا تنفك عن الاعراض ، أي لا تخلو منها ، **والثانية** : ان الاعراض حادثة ، **والثالثة** : ان ما لا ينفك عن الحوادث فهو حادث ، انظر الباقلاني : كتاب التمهيد ، ص ٤٠/ الجويني الارشاد الى قواطع الادلة فى الاعتقاد ، ص ١٧/الغزالي : الاقتصاد فى الاعتقاد ، القطب الاول ، ص ١٣ .

(٢٨) ربط ابن رشد دليل الجواز بأمام الحرمين الجويني ، فقال « وأما الطريق الثاني (يعني دليل الجواز) فهى التى استنبطها أبو المعالي الجويني فى رسالته المعروفة بالنظامية [انظر ـ ابن رشد ـ المصدر السابق ، ص ١٤٠] . الا أن الدليل أورده من قبله : القاضي الباقلاني والشيخ الرئيس ابن سينا ، بل ان المقدمة الاولى فيه يرجع فى صورتها الاولية الى بعض شيوخ المعتزلة وخاصة أبا الهذيل العلاّف ،

ما فيه جائز أن يكون على مقابل ما هو عليه ، حتى يكون من الجائز مثلا أن يكون أصغر أو أكبر مما هو ، أو بشكل آخر غير الشكل الذى هو عليه ، والثاني ان الجائز مُحْدَث وله مُحدِث ، أى فاعل صيّره بأحد الجائزين اولى منه بالآخر؛ وان شئت فاتلو قوله تعالى «قل أرأيتم إنْ جعل الله عليكم الليل سرمداً الى يوم القيامة ، من إله غير الله يأتيكم بضياء ، أفلا تسمعون • قل أرأيتم إنْ جعل الله عليكم النهار سرمداً الى يوم القيامة من يأتيكم بليل تسكنون فيه ، أفلا تبصرون • ومن رحمته : جعل لكم الليل والنهار ، لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون »(٢٩) وقوله تعالى « ألم تر الى ربك كيف مدّ الظل ، ولو شاء لجعله ساكنا ، ثم جعلنا الشمس عليه دليلاً »(٣٠) .

وصالح بن قبه وابي الحسين الصالحي ، الذين « قالوا بجواز أن تكون الاشياء على غير ما هى » [مقالات الاسلاميين ، ص ٣١١ ، ٤٠٦ ، ٢/٢٢٠] وقد انتقد جمع من الفلاسفة هذا الدليل واعتبروا أن القول به يتضمن : قلب الحقائق ومن ثم فقدان الثقة بالعقل والضروريات ، وبصرف النظر عن الصورة الفلسفية والكلامية للدليل ، التى هى مادة الصراع الدائر بين الغزالي وابن رشد وذلك فى المسألة السابعة عشر من كتابى : تهافت الفلاسفة وتهافت التهافت ، فان الصورة القرآنية للدليل ، لا يتضمن قط القول بانقلاب الحقائق ، كما ادعى خصوم الدليل ، بل الذى ينتهي اليه القرآن الكريم ، وأشار اليه العلم الحديث أيضا هو القول بأن « العوامل الطبيعة لا تجرى على سننها المقدرة لها لزاما بحكم العقل ، أو بحكم التفكير المنطقي ، وانها كان يجوز أن تجري على مجراها هذا ، أو على مجرى يساويه ويماثله فى حكم العقل والأقيسة المنطقية وانما هى الارادة الالهية المخصصة المرجحة لهذا النظام ، وصدق الله اذ يقول « صنع الله الذي أتقن كل شيء » ، « ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت » ، « إنا كل شيء خلقناه بقدر » ؛ انظر : العقاد : الانسان فى القرآن الكريم ص ١٢٩/ طبعة دار الهلال .

(٢٩) .....

(٣٠) الفرقان/ ٤٥ .

رابعـــاً :

أثار القرآن الكريم مسائل خلاف جوهرية مع أهل الكتاب والاديان السابقة ، واتخذ الى اثبات صحة ما ذهب اليه طريق الجدل والنقاش العقلي الموزون الذى يتخذ من الاستبانة الصحيحة وسيلة للوصول الى الحقيقة • فقد أثار دعوى الوهية عيسى ـ عليه السلام ـ وناقش فرق النصارى المختلفة التى اعتنقت وجهات نظر متباينة بخصوص طبيعة السيد المسيح ، وأبان بأن التثليث لوثة طرأت على دعوة المسيح الحقة ، وان دعوته الحقة هى الاقرار بالربوبية والالوهية والتوحيد الكامل المطلق بكل شعبـه ، فقـال تعـالى : « لقد كفر الذين قالوا ان الله ثالث ثلاثة ، وما من إله الا إله واحد ، وان لم ينتهوا عما يقولون ، ليمسّن الذين كفروا منهم عذاب عظيم »(٣١) • وقال تعالى : « لقد كفر الذين قالوا ان الله هو المسيح ابن مريم • وقـال المسيح : يا بنى اسرائيل اعبدوا الله ربي وربكم ، انه من يشرك بالله ، فقد حرّم الله عليه الجنة ، ومأواه النار ، وما للظالمين من أنصار »(٣٢) وقوله تعالى : « واذ قال الله ياعيسى ابن مريم أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلـهين من من دون الله ، قال سبحانك ، ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق ، ان كنت قلته فقد علمته ، تعلم ما في نفسي ، ولا أعلم ما في نفسك ، انك أنت علاّم الغيوب »(٣٣) •

---

(٣١) المائدة/٧٣ •

(٣٢) المائدة/٧٥ •

(٣٣) المائدة/١١٦ • يكفي لبيان أهمية احتجاج القرآن الكريم على بطلان عقيدة التثليث ان نشير هنا الى ان مباحث الصفات الالهية ، وهي تشكل الجزء الاكبر من مباحث علم الكلام الاسلامي ، لم تكن لتظهر لولا أن آباء الكنيسة الاول فى الشرق صارو يجادلون فى المسألة ويفلسفونها على أسـاس من مباحث الصفـات الالهيـة ، حتى لقـد غـلا بعض المستشرقين ، فزعـم ان علم الكلام الاسـلامي ، جملة وتفصيلا ،

وأثار القرآن الكريم مسألة « النسخ » التى أنكرها اليهود ، اذ زعموا « ان الشريعة لا تكون الا واحدة ، وهى ابتدأت بموسى وتمت بـه ، فلم يكن قبله شريعة ، الا حدود عقلية وأحكام مصلحية ، فلم يجوزوا النسخ أصلاً وقالوا : فلا تكون بعده شريعة اخرى ، لان النسخ فى الامر بداء ، ولا يجوز البداء على الله »[٣٤] ؛ فناقشهم القرآن الـكريم وقطعهم بقوله تعالى « ما ننسخ من آية أو ننسها نأتي بخير منها أو مثلها »[٣٥] وقال تعالى « واذا بدلنا آية مكان آية ، والله أعلم بما ينزّل ، قالوا : انمـا أنت مفتر ، بل أكثرهم لا يعلمون »[٣٦] .

ليس الا ثمرة هذا النقاش الذى دار بين المسلمين والنصارى بشأن عقيدة الحلول والتجوهر . انظر كتابنا : دراسات فى الفرق والعقائد ، فصل الصفات الالهية : ص/٢٢١ .

(٣٤) الشهرستاني : الملل والنحل : ١/١٢٤ . ردّ النسخ فى الاحكـام عقيدة ثابتة وركن أصيل عند اليهود ، ففي المادة التاسعة من أركان العقيدة الموسوية، كما لخصها المتكلم اليهودي، موسى بن ميمون ، نقرأ : انا اؤمن ايمانا تاما ان هذه الشريعة لا تتغير ، ولا تكون شريعة من لدن الخالق تبارك اسمه » : انظر الدكتور فؤاد حسنين علي «اليهودية واليهودية المسيحية » ص ١١٤ ، منشورات معهد البحوث والدراسات العربية ؛ ١٩٦٨ . ولقد حمل ردّ اليهود للنسخ علماء المسلمين فيما بعد على تفصيل المسألة وبحثها ضمن دراساتهم الكلامية والاصولية ، وشرعوا يميزون بين النسخ فى الاحكام ، والبداء فى الاوامر ، فأجازوا الاول وبرروه عقلا ونقلا ، وردوا الثاني وبدّعوا القائلين به ، كذلك فان مباحث المعتزلة فى الحسن والقبح ، وهل هما ذاتيان أم عقليان ، لم تكن سوى نتيجة منطقية لمباحثهم فى النسخ ؛ انظر : القاضي عبدالجبار : شرح الاصول الخمسة ، فصل : الكلام على منع نسخ الشرائع ، ص ٥٧٧ ، مصطفى زيد : النسخ فى القرآن الـكريم ، ص ٣١/ط ١ ، ١٩٦٣ ، الرازي : التفسير ، ٣/٢٢٦ .

(٣٥) البقرة/١٠ .

(٣٦) النمل/١٠١ ، ذكر المفسرون فى سبب نزولهما ان اليهود زعموا ان محمد ـ ص ـ سخر بأصحابه ، يأمرهم اليوم بأمر وينهاهم عنه غداً ،

كذلك ناقش القرآن الكريم أصحاب الديانات الثنوية من المجوس ، كالزردشتية ، والمانوية ، والمنّانية ، وعارض دعواهم بوجود الهين خالقين ، أحدهما يخلق الخير ويختص به ، والآخر يخلق الشر ويختص به ، فقال في تفنيد زعمهم « لوكان فيهما آلهة الا الله لفسدتا ، فسبحان الله رب العرش عما يصفون » وقال تعالى : « ما اتخذ الله من ولد ، وما كان معه من إله ، اذاً لذهب كل إله بما خلق ، ولعلا بعضهم على بعض ، سبحان الله عما يصفون »(٣٧) .

خامساً :

وأثار القرآن الكريم مسألة علم الله تعالى وارادته وقدرته ، فعارض

أو يأتيهم بما هو أهون عليهم ، وما هو الا مفتر ، أى كاذب مختلق ، يقول من تلقاء نفسه ، فأكذبهم الله تعالى، وقال «بل أكثرهم لا يعلمون» ان لله ان يشرع ما يشاء من الاحكام وتبديل البعض بالبعض : انظر : الواحدي : أسباب النزول ، ص/١١٦ ، القرطبي ، التفسير ٦١٢ .

(٣٧) صاغ المتكلمون هذا البيان القرآني المعجز فى صورة دليل عقلي أسموه بـ « **دليل التمانع** » ؛ وملخصه « انا لو قدرنا الهين اثنين ، وفرضنا غرضين ضدين ، وقدرنا ارادة أحدهما لاحد الضدين ، وارادة الثاني ، للثاني ، فلا يخلو من امور ثلاثة : (١) اما أن تتفق ارادتهما ، أو (٢) لا تنفذ ارادتهما ، أو (٣) تنفذ ارادة أحدهما دون الآخر . واستحال أن تنفذ ارادتهما ، لاستحالة اجتماع الضدين ، واستحال أيضا الا تنفذ ارادتهما ، لتمانع الالهين ، وخلو المحل عن كلا الضدين ، فاذا بطل القسمان تعين الثالث : وهو ان تنفذ ارادة أحدهما دون الآخر ، فالذى لا تنفذ ارادته ، هو : المغلوب المقهور المستكره ، والذى نفذت ارادته فهو القادر على تحصيل ما يشاء [انظر : الجويني : لمع الادلة ،ص ٨٦] . والغزالي بعد تقرير الدليل فى صورته العقلية ، أثناء بحثه فى التوحيد ، يستطرد قائلا : « ان الآية لا أبين منها فى برهان التوحيد ، وانه لا مزيد على بيان القرآن » ، انظر : الرازي : التفسير ٢٢/١٥١ ، القاسمي ؛ محاسن التأويل ، ص ٤٢٦١ .

الفكرة القائلة بأن الله تعالى يعلم الكليات دون الجزئيات ، وهي الفكرة التى ترجع فى اصولها الى المشائي الاول ، ارسطو الذى نفى الارادة والتدبير والعلم الجزئي عن الله ، اذ كان يـرى ان الله عقل وعاقـل ومعقـول ، لان موضوع العلم الكامل ـ فى رأيه ـ لا يكون الا كاملا ، وهو لهذا لا يعقل الا ذاته ، فيكون عقله بذاته ومن ذاته ولذاته ، اذ لا يتفق مع المنطق ان يكون موضوع العلم الالهى الأشرف هو عالمنا هذا ، لانه ناقص بدليل سيره نحو الكمال ، فيجب تنزيه الاله عن ادراك الناقص ، أمـا الادراك الالهي الكامل فلا يتعلق الا بأفخم ما فى الوجود ، ولا يوجد شيء أفخم من نفس الذات الالهية ، فعلم الاله اذاً لا يتعلق الا بذاته ، وفى هذا يقول ارسطو « لا يناسب مقام المبدأ الاول أن يدخل عقله ما هـو أدنى مرتبـة منـه فى الوجود ، كيف يعلم ما هو منزه عن كدر المادة مـا فى العالم من الاكـدار والادناس والفواحش والجزئيات الجنسية ، من غير أن ينقص من صفاته شيء • أما ما فى الكون من نظام فعلته ـ على ما يرى ارسطو ـ ذلك الشوق الطبيعي الموجود فى كل كبير وصغير من أجزاء المادة ، يحركه نحو الصورة الغائية ، وان هذه الحركات المدفوعة بالعشق ليس للارادة ولا للعلم الالهيين فيها أي تدبير ، بل هى حركات آلية منشؤها الاستعداد الطبيعي الموجود فى أجزاء المادة(٣٨) .

لقد نبه القرآن الكريم الى ان الله تعالى لم يصنع ما صنع ثم يتركه بلا عناية أو رعاية أو دون علم تام بما يكون منه ، بل انه قد أحاط بكل شيء علما ، فقال تعالى « ألا له الخلق والامر ، تبـارك الله رب العالمـين »(٣٩)

---

(٣٨) الدكتور محمـد غـلاب ، الفلسفـة الاغريقيـة ، الطبعـة الثانية ، ٢/٧٧ـ٧٨ ؛ أيضا : رسل : تاريخ الفلسفة الغربية ، الترجمـة العربية للدكتور ...

(٣٩) الاعراف/٥٣ .

وقال تعالى « يدبر الامر يفصل الآيات[٤٠] وقال تعالى « يدبر الامر من السماء الى الارض ثم يعرج اليه[٤١] وقال تعالى « وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها الا هو ، ويعلم ما فى البر والبحر ، وما تسقط من ورقة الا يعلمها ، ولا حبّ فى ظلمات الارض ، ولا رطب ولا يابس الا فى كتاب مبين »[٤٢] .

---

(٤٠) الرعد/٢ .

(٤١) السجدة/٥ .

(٤٢) انعام/٩ . [هذا هو الاصل الثانى من جملة الاصول الثلاثة التى كفر الغزالي الفلاسفة عليها ، فقال عنهم « وكذلك يجب تكفير من قال منهم ان الله تعالى لا يعلم الا نفسه ، أو لا يعلم الا الكليات ، فأما الامور الجزئية المتعلقة بالاشخاص فلا يعلمها . » انظر : فيصل التفرقة ، ص ١٩٢ ، تحقيق الدكتور سليمان دنيا ، الطبعة الاولى/ ١٩٦١ ، كذلك : تهافت الفلاسفة ، ص ٣٩ ، تحقيق سليمان دنيا ، الطبعة الرابعة . وقد اختلف المتكلمون بعد الغزالي فى هذه المسألة ، فمنهم من فهم عبارات المتفلسفة فى الاسلام ، كالفارابي وابن سينا ، فى هذه المسألة فهمه ، ومنهم الفخر الرازي ونصير الدين الطوسي ومنهم من نزع الى فهم النصّ على خلاف ما فهمه الغزالي وشيعته ، مثل الشيرازي ، صاحب المحاكمات ، والشيخ محمد عبده فى شرحه للعقائد العضدية ، انظر كتاب « محمد عبده بين الفلاسفة والمتكلمين ، للدكتور سليمان دنيا ، ص ٢٠٩] . وتجدر الاشارة اليه هو أن التدبير الالهي للوجود أمر أقره جمع من فلاسفة العصر الحديث وعلمائه ، يقول باركلي « ولقد تراءى لبعض الفلاسفة ـ مع اقتناعهم بحكمة الخالق وقدرته مما يتجلى فى خلق هذه الاشياء المتناسقة وتدبيرها وايجاد نظام يحكم العالم ـ انه قد تخلّى عن هذا العالم بجميع أجزائه ومحتوياته ، بعد أن ضمن نظامها وبعث فيها الحركة ، كما يتخلّى الصانع عن الساعة التى صنعها وتركها لتسير من تلقاء نفسها لمدة محدودة ، هذه اللغة البصرية التى يتحدث بها الله الينا تبرهن ليس فقط على وجود خالق لهذا الكون ، بل على وجود مدبر له يوالي عنايته به ، وحاضر حضورا مباشرا وباطنيا فيه ، ولا يعزب عنه أية رغبة من رغباتنا ، أو أية حركة من حركاتنا ، دائب العناية لاقل فعل من أفعالنا ، ولأتفه مشروع من مشروعاتنا طوال حياتنا كلها [الدكتور يحيى هويدي : باركلي ، ص : ١٦٥ ، سلسلة نوابغ الفكر الغربي ، الرقم ١٢] .